

العلاقة بين الحكومات والشعب العربي

إذا رجعنا بأذهاننا إلى ما قبل عشر سنوات لنلقي نظرة على الوضع الحكومي في الوطن العربي نجد أنه كان ثمة ما يقرب من التناقض بين الشعب والحكومات . فالشعب كان ينظر إلى هذه الحكومات كأنها حكومات أجنبية، وكان يعتبرها بحق مندوبة عن الاستعمار وسياسته ومصالحه، وكان يرتاب في كل عمل تقوم به، ويناصبها العدااء .

ولا حاجة أن استعرض الآن مراحل النضال العربي خلال السنوات العشر الأخيرة، وكيف أن الشعب في أكثر الأقطار العربية استطاع أن يسقط الحكومات، ويفضح تآمرها، ويزيل الهالة التي كانت تحيط بها نفسها . هذا النضال كان يدور حول السياسة الداخلية والعربية والخارجية في آن واحد، فكان الشعب يناضل ضد كبت الحريات في الداخل، وضد تزوير الانتخابات، وضد استغلال الحكم لمصلحة أفراد وطبقة معينة وإهمال مصلحة العدد الأكبر من المواطنين . كما كان الشعب يناضل ضد سياسة التجزئة والتناحر بين الحكام العرب، وانحصارهم في أفق مصالحهم الشخصية، ونظرتهم الاقليمية، وتضحيتهم بمصلحة القضية القومية الكبرى في سبيل منافسات وزعامات ليست في مستوى تلك القضية .

كذلك كان الشعب في مختلف اقطارنا يناضل ضد السياسة المستسلمة

للمستعمر . . الضعيفة . . المتآمرة في كثير من الأحيان مع المستعمر نفسه ضد مصلحة الوطن . ومن الطبيعي - بل من البديهي - في شعب كاشعنا أصبح من الواضح جداً أنه يجتاز مرحلة إنبعث أن تكون معارك نضاله فعالة مؤثرة، وان تأتي بشمار جدية، وهذا ما بدأ الشعب يللمسه في هذا الوقت الأخير . وقد حصل تطور كبير في حياة العرب في هذه السنين، وان كنا اليوم نلاحظ أن الهوة بين الشعب وبين بعض الحكومات - لا كلها - قد ضاقت، ووجد أخيراً شيء من التقارب أو التجاوب بين الشعب وحكوماته، فما ذلك إلا نتيجة ذلك النضال: النضال الواعي الذي رسمت خطوته القيادات الشعبية الانقلابية والتقدمية في الوطن العربي .

وليس من مواطن واع يخطر بباله أن هذا التغيير في الوضع العربي وفي السياسة العربية الرسمية ناتج عن رغبة الحكام ووطنيتهم وبعد نظرهم، وعن كونهم قادة بالمعنى الصحيح، وأنهم يرسمون الطريق لشعبهم وأمتهم، لأن الواقع يكذب ذلك . كل ما جرى في هذه السنين العشر الأخيرة إذ لم نشأ أن نرجع إلى أبعد من ذلك كان نتيجة ضغط الشعب على الحكومات، وفرض الشعب لارادته على تلك الحكومات، لانتيجة وعي الحكومات وإخلاصها وتجاوبها الصادق مع الأماني القومية .

وفي شعب حي يجتاز مرحلة انبعث - كما قلنا - لاتظل الأمور جامدة ساكنة، بل كل شيء يتغير ويتبدل ويتطور نتيجة حيوية الشعب، واندفاعه وتحسنه بحقوقه وبكيانه وبشخصيته الانسانية وبدوره في التاريخ . لذلك فالحكومات أيضاً تتغير . . تتغير بأشخاصها . . . وتتغير بعقليتها . . . وتتغير افقها . . وتتغير علاقاتها مع الشعب .

وقد جرت في هذه السنوات هزات كثيرة وحوادث داخلية وخارجية خطيرة، وتبدل نوع الحكم في بعض الأقطار وقام حكم عسكري في سورية وتغير ثم تجدد وتعاقب ثم تغير، وقام حكم عسكري في مصر . وأهم هذه الهزات القومية - بلا ريب - هي معركة فلسطين، وتآمر الدول الأجنبية على القضية العربية عندما أقروا إقامة

دولة للصهيونية في فلسطين .

وهذا الحادث ، كما شعر بذلك المناضلون الواعون من أبناء أمتنا عند حدوثه - أي منذ ثماني سنوات - وبدأ الشعب والكثرة الساحقة تلمس ذلك تدريجياً . . . هذا الحادث هو حادث تاريخي كان له وما يزال النصيب الأكبر في تحريك الكيان العربي ، وفي كشف زيف الأوضاع التي كان عليها العرب ، وفي تبديل أساسي عميق في نفوس العرب وعقليتهم ، خطا بهم عشرات السنين إلى الأمام . وبكلمة مختصرة ، ان كارثة فلسطين أدخلت العرب في العصر الحديث .

فماذا يمكن أن نستنتج من هذه النظرة في التبدل الذي حصل خلال هذه السنوات؟ هل نخرج بنتيجة متفائلة أو على العكس؟ . . . وإذا خرجنا بنتيجة متفائلة كيف يجب أن نفهم هذا التفاؤل . . . مادامنا قررنا أن تطوراً كبيراً قد حدث . . . قد تم . . . وان تكوين الحكومات في بعض الأقطار العربية قد تبدل ، وان عقلية الحكومات قد تغيرت ، واقتربت نسبياً من حاجات الشعب وأمانيه . . . فمن الطبيعي ان نتفاءل . . . ولكن كيف يجب أن نتفاءل؟ . . . هل نسلم قيادنا بعد اليوم للحكومات ، ونطمئن أطمئناً أعمى ، ونسير في ركابها مؤيدين مصفقين؟ أم نستمر كما كنا في النضال ، والضغط ، ورسم الأهداف القومية الصحيحة ، البعيدة ، لكي تستمر هذه الحكومات في الاستجابة لمطالب الشعب ، وتحسب حساباً لارادته ، وتزداد اقتراباً منه ، ولكي نصل إلى اليوم الذي تصبح فيه الحكومات شعبية . . . من صميم الشعب . . . وثورية انقلابية تضع الأهداف القومية موضع التنفيذ؟ . . .

لاشك أن التفاؤل الذي يجوز لنا هو هذا الأخير مشروطاً باستمرار النضال ، وباستمرار الضغط ، وارتفاع مستوى النضال . إذ أن نضالنا في السنين السابقة كان يراعي الامكانيات الراهنة . وقد ازدادت هذه الامكانيات زيادة كبرى ، فمن الواجب ان تزداد مطالبنا علواً وبعداً وان يرتفع مستواها بنسبة ازيد من امكانياتنا القومية الشعبية . والضغط الشعبي لا يضير الحكومات عندما تكون مخلصه ، إذ انه قوتها الوحيدة . . . وقوتها الكبرى . وكل حكومة تبقى مدعورة من الضغط ، مرتابة فيه ،

تفصح في ذعرها وفي ارتيابها عن بعدها عن الشعب وعن نقص الصدق في سياستها وفي مماشاتها للشعب.

فكلنا يدرك بأن مجال الحكام هو أضييق من مجال المناضلين . الحكام هم في ميدان التنفيذ يراعون اعتبارات عدة لذلك لا بد في هذه المرحلة أن يقصروا عن المطالب الشعبية الكاملة، فإذا سكت الشعب عن المطالبة، فإن الحكومات تعجز حتى عن تحقيق مهمات هذه المرحلة التي ليست هي كل شيء، وليست إلا جزءاً من مراحلنا وأهدافنا القومية .

هذا ما كنا نقوله منذ سنين طويلة، ولم يكن الرسميون قادرين أن يستوعبوا ذلك أو يعترفوا بصحة هذا المنطق وهذا السير . كنا نقول دوماً منذ نشأة هذا الحزب قبل خمسة عشر عاماً - ومنذ المعارك النضالية الأولى، بأن الأمة العربية في هذا العصر ما زالت في حالة الامكان، لم تتحقق بعد إلا تحقفاً جزئياً، وكل قواها أو أكثر قواها وإمكاناتها ما زالت خبيثة مخزونة، ومن الواجب ان نراهن على هذه الامكانيات الخبيثة، وان نناضل من أجل تفجيرها والكشف عنها وتحقيقها، وبالتالي أن تكون سياستنا سياسة المستقبل، وان ترمي دوماً إلى المستقبل، وان نعتبر الحاضر وسيلة ومرحلة يجب أن تسخر لهذا المستقبل الغني بالقوى والامكانيات ويتج من ذلك ان الفرق بين الشعب الذي هو مستودع هذه الامكانيات وبين الحكومات التي تعالج الظرف الحاضر الراهن يجب أن يبقى بينهما فرق كبير، وان تتحاشى الحكومات - إذا كان فيها ذرة من الاخلاص - اعتبار نفسها صورة صادقة عن الشعب لأنها بذلك تفقر الشعب إلى أبعد حدود الأفقار . لأن إمكانيات الحكومات ضئيلة وإمكانيات الشعب وفيرة .

واليوم - أيها الاخوان - ما زلنا نصطدم ببقايا تلك العقلية القديمة . ولئن تبدلت عقلية الحكام بعض الشيء فأنها لم تتبدل تبديلاً كلياً تاماً . وما زالت هناك رغبة عند الحكام في أن يعتبروا انفسهم قادة للشعب، وان يعتبروا انفسهم ممثلين لحقيقة الامكانيات الشعبية، وان يجيزوا لأنفسهم بالتالي منع الضغط الشعبي - إذ لا مبرر

للضغط الشعبي عندما تكون الحكومات المعبر الصادق عن حاجات الشعب وإمكانياته. ولعلكم لاحظتم في البيان الذي صدر في القاهرة عن اجتماع الرؤساء الثلاثة روحاً تتأرجح بين الماضي والمستقبل، فبينما يعترف هؤلاء الرؤساء بفضل الضغط الشعبي - لم يقولوا الضغط الشعبي وإنما قالوا الوعي . . الوعي العربي . . وعي الرأي العام العربي - في نفس الوقت الذي اعترفوا فيه بفضل هذا الوعي حاولوا أن يظهرُوا بأنهم هم الذين خلقوه وأوجدوه، والصحيح أنه إنما خلق أثناء محاربة الشعب لهم ومقاومته لسياستهم ولعقليتهم الجامدة، ولنفسيتهم ولمكابرتهم، وفي بعض الأحيان وجد هذا الوعي في معزل عنهم تماماً ولم يكن لهم في خلقه أثر سلبي أو إيجابي .

ولا بد من التفريق أيضاً بين هذا النوع من الحكومات الذي بدأ يسير الاتجاه الشعبي - فليست كل الحكومات السائرة اليوم في الاتجاه التحرري . . ليست كلها سواء . .

وهنا نتعرض لسؤال طرح عن سياسة مصر وجمال عبدالناصر. فأعتقد أنه من الواضح أن سياسة العسكريين في مصر وخاصة زعيم هذه الفئة الرئيس جمال عبد الناصر سياسة لم تأت فقط من الضغط الشعبي وإنما فيها عنصر عفوي وصادق، وفيها تجاوب ذاتي مع حاجات الشعب وأماني الشعب، وبذلك نفرقها عن الحكومات الأخرى التي تسير في ركاب سياسة مصر، والتي إنما تسير مرغمة، وإن هذه السياسة لاتنبع من نفسها، من أعماق نفسها، وإنما بضغط الظروف وجدت من المناسب أن تسير هذه السياسة. إذن من الانصاف ومن مصلحة القضية القومية أن نتبين ونميز هذه الفروق. وهنا سأتوقف عند موضوع حكومة مصر لأعود إلى إكمال الجواب على السؤال الأول - إذ أن الموضوعات متشابهة - لأبين لكم كيف أن سياسة الحاكمين في مصر اليوم ان لم يجز ان تسمى سياسة انقلابية كما نفهمها ويفهمها الشعب العربي فلا يجوز أيضاً أن نساوئها بسياسة الحكومات الأخرى فهي أرقى وأصدق من سياسة الحكومات الأخرى وان كانت لم تبلغ مستوى

السياسة الانقلابية .

قلت لكم ان اضخم حدث في حياة العرب في العصر الحديث هو كارثة فلسطين، وتآمر الدول الأجنبية على قضيتنا . على حريتنا ووحدةنا بصورة خاصة . . لقد كانت إقامة اسرائيل في قلب وطننا كارثة هزت بعنف وعمق بنياننا السياسي والاجتماعي والنفسي في آن واحد. وأصابت هذه الهزة قطراً عربياً كبيراً كانت السياسة الاستعمارية والسياسة الرجعية تعزلانه عن بقية الأقطار العربية، ولكن عنف الصدمة تخطى تلك الحواجز المصطنعة التي أقامها المستعمر وأقامها السياسيون الرجعيون في مصر. وبدأ الشعب العربي في مصر يشعر بوحدة قضيته مع أبناء العروبة كلهم، ونتج عن ذلك، الانقلاب العسكري في مصر، على أثر الانقلابات العسكرية في سورية، وبما أنه لم يكن في مصر حركة شعبية انقلابية تقوم على أساس عربي واضح كحركتنا، ولها نظرة شاملة تتناول القضية العربية من مختلف نواحيها الاقتصادية والتحررية والتوحيدية فكان ذلك مساعداً على أن يظهر في الجيش المصري شباب حاربوا، في فلسطين وعانوا بالتجربة الحية معركة العروبة في فلسطين، وعانوا في تلك المعركة بالتجربة المباشرة القاسية فساد الحكم وتآمر الحكام مع الاستعمار على قضية الشعب، فساعد ذلك على أن يحمل هؤلاء الرجال رسالة إلى الشعب العربي في مصر أولاً وإلى بقية أقطاره ثانياً. فكانوا استجابة لرغبات الشعب ولآلامه، وهم لا يشبهون بحال من الأحوال الحركات العسكرية التي ظهرت في سورية، لأنها كانت مشبوهة منذ البدء، ولم يكن لوجودها مبرر، مادامت الحركة الانقلابية الحية قد وجدت في هذا القطر والشعب سائر وراءها، ويتعاضم عدده ونضاله في طريقها . . كانت الحركات العسكرية في سوريا متهمه بأنها أتت لتقاوم الحركة الشعبية الانقلابية وتقطع الطريق عليها لا لتحقيق حكم الشعب. أما في مصر فلم يكن ثمة مثل هذه الحركة وكانت عناصر الاخلاص والسلامة متوافرة أمام تلك المجموعة من ضباط الجيش لكي يحسنوا الاصغاء إلى أماني الشعب ويستجيبوا لها بأمانة، وهكذا رأيناهم يبدأون أعمالاً فذة، وينقذون مصر من حكم

الملك ومن الملكية وفسادها، وينقون الجوع، ويبادرون إلى تلبية أمس الحاجات الشعبية.. إلى العناية بمستوى العدد الأكبر من أبناء الشعب فوزعوا الأراضي وشقوا طريقاً إلى الإصلاح الاجتماعي، ثم بعد تردد مدة من الزمن ادركوا صلتهم بالحركة العربية العامة، وادركوا موضعهم الخطير من هذه الحركة، فتجرؤوا وساروا في اتجاه عربي وحدوي تحرري - لأنقول انه غاية الغايات، ولأنقول انه الاتجاه الانقلابي الذي نسعى إليه، ولكنه بلا شك خطوة كبيرة على طريق اتجاهنا..

١٢ نيسان ١٩٥٦